الشعر
في العصر المملوكي
(648 - 923هـ)

يمتد العصر المملوكي من سنة 648هـ إلى سنة 923هـ، وهي فترة طويلة، يصعب على الإنسان أن يتحدث عنها بإيجاز شديد كما نصنع نحن هنا؛ إذ تحتاج إلى دراسات ودراسات.

ولكن لا بأس من إشارات عابرة إلى حالة الشعر وحياته في ذلك العصر.

وعلى الرغم من الأصل غير العربي لحكام هذه الفترة، فإنهم استطاعوا أن يتصدوا لفلول الصليبيين، وأن يطهروا البلاد من رجسهم، كما تصدوا ببسالة نادرة لهجمات التتار، واستطاعوا كسر شوكتهم، وخاصة في عين جالوت، ولولا تصديهم هذا لانحسرت الحضارة العربية، فغيروا بذلك مجرى التاريخ.

لقد صارت مصر في عهدهم درة التاج في العالم الإسلامي؛ ثقافة وأدبًا وفنًّا وعمارة وحضارة، رغم ما مر بها - آنذاك - من مجاعات وأوبئة وانقسام طبقي وفساد اجتماعي في بعض الأحيان.

استمر تيار الثقافة في العصر المملوكي ممتدًّا؛ فلقد تحمس المماليك للثقافة العربية والفكر العربي، وأخلصوا في ذلك إخلاصًا، والشواهد بين أيدينا حاضرة تدل على ذلك الاهتمام والحماس .. لقد شيدوا الجوامع، وألحقوا بها المدارس وخزانات الكتب، واهتموا بالعلم والعلماء والأدب والأدباء، وكانت لديهم الغيرة الواضحة على ذلك، ويكفي القول إن مصر كانت المركز الأساسي للثقافة والحضارة والأدب والفكر في عصرهم.

والحق أن المد الشعري لم يتوقف؛ بل استمر قويًّا فياضًا، ووجد الشعراء والأدباء من التشجيع، كما وجد أسلافهم من الشعراء في العهود السابقة.

obeikandl.com

لقد استمر للشعر نشاطه في ذلك العصر، وإن دب فيه أحيانًا بعض الوهن، لكنه ظل فتيًّا، ويكفينا دلالة على نشاطه كثرة الشعراء وشعرهم، وتنوع أساليبهم وأغراضهم، وكثرة كتب التراث الأدبية التي وصلت إلينا من ذلك العصر، ويكفي القول إن كثيرًا من الشعراء آنذاك قد عبر عن الذات والنفس أكثر من التعبير عن الحكام والارتباط بهم.

ونود هنا أن نقف عند بعض الموضوعات البارزة في الشعر المملوكي، وأهمها ما يلي:

أ- الوصف:

الوصف من الفنون الشعرية المعروفة، وهو شيء ملازم للفطرة البشرية، فما تكاد عين الإنسان تقع على شيء، أو يحدث للإنسان شيء إلا وصفه وتحدث عنه. ويرى البعض أن الشعر العربي كله - في الأصل - وصف، ولكن لما تحدد كل غرض بشيء معين بقي وصف الطبيعة غرضًا قائمًا بذاته.

والحق أن الشاعر العربي قد برع في وصف الطبيعة براعة لا حدود لها، وازدهر هذا الفن ازدهارًا في العصر المملوكي؛ لما جد في هذا العصر من مظاهر عمرانية وحضارية، وما استحدث الإنسان من قصور وحدائق وبساتين، لقد وقف الشاعر المملوكي يصف الطبيعة الجميلة ومظاهر الحضارة، حتى ما كاد يترك شيئًا إلا وصفه.

ولعل أهم ما وقف عنده يصفه ويتملى مجاليه الحسان: الطبيعة المصرية بما حباها الله من جمال، وما خصها من آيات الإبداع والجلال، وأبرز مظاهر الطبيعة الجميلة في مصر النيل العظيم الذي حبا الله به مصر، فصارت به فردوس الدنيا وجنة الله في أرضه، هذا النيل الذي ألهب خيال الشعراء، وجعل عواطفهم دافقة كأمواهه المتدفقة وأمواجه المترقرقة.

افتن الشاعر المملوكي بالنيل، وبكل ما يتصل به من شواطئ وسفن ومراكب وأمواه وفيضان وأمواج وخلجان وصيد ونباتات وأسماك وبساتين حفته، وحدائق حوته، وأطنب في ذلك إطنابًا، فأعطانا لوحات آية في الإبداع وغاية في الجمال، يقول ابن عبد الظاهر معبرًا عن جمال النيل وحسنه، واستمرار تدفقه على مدى الدهر:

نِيـــلُ مـــصرَ لِمَـــنْ تَأَمَّـــلَ مَـــرَأى حُـسْنُه مُعْجِـزٌ وبالحُـسْنِ مُعجـبُ
كَـمْ بِــه شَــابَ فَوْدُهَــا وعَجِيــبٌ كَيْفَ شَابَتْ بالنِّيلِ والنِّيلُ يَخْضبُ(1)

ويقول ابن دانيال مبرزًا محاسن النيل:

كَـــأَنَّمَا النِّيـــلُ الخِـــضَمُّ إِذْ بَـــدَا يَــرْوِي حــديثًا وَهــو ذُو تَسَلْــسُلِ
لمَّـــا رَأَى الأَرْضَ بِهَـــا شَـــقِيقَهُ ضَـــمَّخَها بمَائِـــه المُـــصَنْدَلِ(2)

أما أيدمر التركي فيطلب منا أن نسرح البصر ونعيده كرات في النيل السعيد، المقبل بالخير، وأن نتملى جمال مائه العذب الزلال، وأن ننظر إلى زوارقه الجارية على أمواجه، وكأنما هي عقارب فوق حيات تسعى في عدوها، وألا ننسى النظر إلى أسماكه الفضية الجميلة، يقول أيدمر:

انْظُــرْ إِلَى النِّيــلِ الــسَّعِيدِ المُقْبِــلِ والمـــاءُ في أَنْهَـــارِه كالسلْـــسَلِ
أَضْـحَى يُريـكَ الحُسْنَ بَـيْنَ مُـوَرَّدٍ مِــن لونِــه حِينًــا وبَــيْنَ مُــصَنْدَلِ
ويَمــرُّ في قيـــدِ الرِّيـــاحِ مُسلْـــسلًا بأحــسنهِ مِــنْ مطلــقٍ ومُسَلْــسَلِ
وتَـــرَى زَوارِقَـــهُ عَـــلَى أَمْواجِـــهِ مَنْـــسُوبةً للنَّـــاظرِ المُتَأَمِّـــلِ
مِثْـلُ عَقَـاربٍ فـوقَ حيَّـاتٍ غَـدَتْ يَــسْعَى بِهَــا في عَــدْوِهَا مَــا يَــأْتَلِي
وكـــأَنَّمَا أَسْـــمَاكُه مِـــنْ فِـــضَّةٍ مِــن جُمْـدِ ذَائـبِ مَائِـه مِـنْ أَوَّلِ(3)

لقد كان النيل الشغل الشاغل لشعراء مصر في العصر المملوكي، إلى درجة أن بعضهم قد نظم شعرًا خاصًّا فيه سماه "مقطعات النيل"، مثل ابن الحاجب وابن الساعاتي، وإلى

(1) ديوان القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر، ص 118، دراسة وتحقيق: د. غريب محمد علي، ط أولى، دار البيان العربي، سنة 1990.
(2) حسن المحاضرة، ج 2، ص 360.
(3) حسن المحاضرة، ج 2، ص 363.

درجة أن النيل قد تلاعب بخيال الشعراء، فصوره بعضهم ملكًا جميلًا عادلًا، جاء لينظر في أمر الرعية، فيكشف عنهم الضر، ويمنحهم الخير والسعادة، فقال:

كَأَنَّــــه مَلِـــكٌ وَافَى لينظـــرَ فِي ... أَمْـرِ الرَّعيـةِ إنْ ضُرًّا رَأَى كَـشَفَا[1]

والبيت من قصيدة لشمس الدين النواجي، تسمى "تسبيحة النواجي"، يتحدث فيها عن عاطفة جياشة مملوءة بالحمد والشكر لله أن جعل النيل يفيض على مصر بالخير والخصب والنماء، يستهلها قائلًا:

الحَمْـــدُ للّهِ وَافَى نَيلُنَـــا ووَفَى ... وبَـلَّ غُلَّـة قَلْـبٍ كَـانَ قَـدْ نَـشَفَا[2]

ويستمر النواجي في ترنيمته قائلًا:

دَقَّـتْ بَـشَائِرُه في مِـصْرَ وانْتَـشَرَتْ ... رَاياتُـــه بقُلُـــوعٍ آذنَـــتْ بوفَـــا

أَرْخَـى عَـلَى النَّـاسِ سـترَ العـدِل ... في رَوْضَـةٍ مِـن شَـذَاها أصبحتْ أُنفَا

قَـدْ رَقَّ طبعًـا فـما أَحْـلَى زَوائِـدَه ... فِي الذَّوْقِ لَوْ مَرَّ في قَلْبِ الصَّفَا لطفَا[3]

ومضى شعراء ذلك العصر يتحدثون عن جزيرة الروضة والمقياس، وعن الظلال والألوان والأشجار والطيور التي تحف النيل وتشرب من مائه العذب، كما تحدثوا عن الحدائق والبساتين والرياض، وخاصة في وقت الربيع الذي يأتي فتزدهر فيه الدنيا، وتلبس حللًا سندسية جميلة، وممن قدم لنا لوحات ربيعية في ذلك ابن عبد الظاهر، الذي نقرأ معه قوله:

وَبَطْحَـاءَ في وادٍ يَرُوقُـكَ رَوْضُـهَا ... ولا سـيَّما إن جـادَ غَيْـثُ مُبكِـرُ

تُلاحِظُهَـا عَـيْنٌ تَفِـيضُ بَـأَدْمُعٍ ... يُرَقرِقُهَـا مِنْهَـا هُنَالِـكَ مَحْجَـرُ

---

(1)، (2) كوكب الروضة، السيوطي، ص 135 وما بعدها. مخطوط بدار الكتب المصرية؛ وانظر: كوكب الروضة، ص 261، بتحقيق: محمد الششتاوي، ط دار الآفاق العربية، 2001م.

(3) كوكب الروضة، ص 261، بتحقيق محمد الشصتاوي، ط دار الآفاق العربية، 2001م.

بِهَا فَـاضَ نَهْـرٌ مِـنْ لُجَـيْنٍ كَأَنَّـهُ … صَـفَائِحُ أَضْـحَتْ بـالنُّجومِ تُـسمرُ
كَـأنَّ حَـصَاهُ إِذْ بَـدَا مِنْـه أبْـيَض … وأحْمَــر دَمْــعٌ فِي الخُــدُودِ يُنْثَــرُ
وإلَّا فَــبُرْدٌ بِــالظِّلالِ مُــسَهَّمٌ … وإِلَّا فَطِــرْسٌ بالتَّجعــدِ يُــسَطرُ
وَمَــا لاحَ فِي جَنْبيــه نَبْــتٌ وإِنَّــمَا … تَبَـدَّى عِـذارٌ مِنْـه فِي الخَـدِّ أَخْـضَرُ
وَكَــمْ غَازلَتْــه للغَزَالَــةِ مُقْلَــةٌ … تُــسَارِقُ أَوْرَاقَ الغُــصُونِ فتَنْظُــرُ
فَتُبْـصِرُ مِنْـهُ كُـلَّ حُـسْنٍ فيَعْـتَرِي … حَيَـاءٌ لديْـهِ وَجْهَهَـا وَهْـو أصْـفَرُ
إِذَا فَاخَرَتْــه الــرِّيحُ وَلَّــتْ عَلِيلَــةً … بأَذْيَــالِ كُثْبَــانِ الرُّبَــا تَتَعثــرُ
بِـه الفَـضْلُ يَبْـدُو للربيـعِ وَكَـمْ غَـدَا … بِهِ الرَّوضُ يَحْيَا وَهوَ لا شَكَّ مُعَنبرُ (1)

لقد برع الشاعر المملوكي براعة لا حدود لها في وصف البساتين والرياض، ووقف كثيرًا - وهو في تلك الرياض - عند زهرها ونورها وورد ها وشجرها وثمرها، يصفها في غاية من الدقة والروعة، وكأنما حينما تقرأ في ذلك الأمر نحس أننا دخلنا معه تلك الرياض، فتنزهنا وأبصرنا وشممنا وتمتعنا، فسرت نفوسنا واستراحت أجسادنا من عناء الحياة.

وقد قدم لنا السيوطي في حسن المحاضرة فصلًا رائعًا مما قيل من أشعار في الرياض والأزهار والأشجار والثمار، ومن ذلك قول ابن عبد الظاهر يصف الياسمين:

ويَاسَـــمِين قَـــدْ بَـــدَتْ … أَزْهَـــارُه لِمَـــنْ يَـــصِفْ
كَمِثْـــلِ ثَـــوْبٍ أَخْـــضَرٍ … عَلَيْـــهِ قُطْـــنٌ قَـــدْ نُـــدِفْ (2)

---

(1) ديوان ابن عبد الظاهر، ص 116.

(2) حسن المحاضرة، ج 2، ص 423.

obeikandi.com

وقول ابن عبد الظاهر في المشمش:

حَبَّذَا مِشْمِشٌ عَلى الدَّوْحِ أَضْحَى ... ذَا شُعَاعٍ يَسْتوقِفُ الأَبْصَارَا

شَجَرٌ أَخْضَر لنَا جَعَل اللَّـ ... ـهُ تعَالى مِنْه كَما قَالَ نَارَا (1)

والحق أن الشاعر المملوكي لم يكد يترك شيئًا من مظاهر الطبيعة إلا وقف عنده يصفه ويتحدث عنه، وكأنما كانت عينه عدسة لاقطة تصف كل شيء تقع عليه في تلك الطبيعة الجميلة.

وإلى جانب الربيعيات والنوريات والروضيات وصف القمر والشمس والنجوم، ووصف الآثار المصرية القديمة، وعلى رأسها الأهرام، ومن ذلك قول فخر الدين عبد الوهاب المصري، الذي حلق بخياله في جو تلك الأهرامات، وقدم لنا شيئًا من العظة والاعتبار من خلال ذلك الوصف الرائع:

أمَبَانِيَ الأَهْرَامِ كَمْ مِنْ وَاعِظٍ ... صَدَعَ القُلُوبَ وَلَمْ يَفُهْ بِلسَانِه

هُنَّ الجبال الَّشامِخَاتُ تكادُ أَنْ ... تمْتدَّ فَوْق الأَرْضِ عَنْ كِيوانِهِ

لو أَنَّ كِسْرَى جَالِسٌ في سَفْحِها ... لأَجَل مَجْلِسِه عَلَى إيوانِه

ثَبَتَتْ عَلَى حَرِّ الزَّمَانِ وبَرْدِه ... مُددًا ولَمْ تَأْسَفْ عَلَى إِيوَانِه (2)

وعني الشاعر المملوكي - أيضًا - بوصف المدن والمنازل والأسواق والمدارس والمساجد والحمامات والأثاث والأدوات والحيوان ومجالس اللهو، وله في ذلك كله لوحات آية في الجمال والإبداع.

(1) ديوان ابن عبد الظاهر، ص 108، وفي رواية: "حبذا مشمس بجلق أضحى".

(2) الخطط، ج 1، ص 196.

obeikandl.com

2- الإخوانيات[1]:

الإخوانيات فن قديم في الشعر العربي؛ فلقد شهد العصر الجاهلي وصدر الإسلام شيئًا منه، وازدهر هذا الفن في القرن الرابع الهجري.

وأما الأدب المصري فلقد عرف لونًا منه في عصوره الأولى، وكثر وازدهر في العصر الأيوبي، وبلغ القمة في العصر المملوكي.

ولعل العلاقة المتينة التي كان تربط الشعراء بعضهم ببعض هي التي أوجدت هذا الفن، وهي علاقة ود ومحبة أحيانًا، وعلاقة تنافس في بعض الأحيان، ويمكن أن يضاف إلى ذلك عامل الغربة الذي كان يؤجج الشوق ويبعث على الحنين، ثم المطالب المادية والبحث عن المناصب كانا من أهم الدوافع إلى النظم في هذا اللون، كما لا يغفل أنه يعد بديلًا عما افتقده الشعراء من تشجيع، وعوضًا عما يعانون من ألم وبؤس.

والحق أن شعر الإخوانيات مخالف لما تعارف عليه الشعراء واعتادوه؛ فهو شعر لا زيف فيه ولا تملق، شعر فيه الصراحة والصدق، يتسم صاحبه بالوفاء والمجاملة الرقيقة، وصدق العاطفة وقوتها، وعمق الشعور ورقة الإحساس، وهو شعر متنوع الأغراض، متوزع الموضوعات ما بين مديح وعتاب وشكوى وشوق واستعطاف وعزاء، ومن خلاله تظهر شخصية صاحبه، فهو يفصح عن القسمات النفسية لناظمه، ويدل على سعة خياله ودرجة ثقافته، وعلاقته بأصدقائه ومجتمعه، ويدل على منزلته عند إخوانه.

وهذا اللون من الشعر يهدف إلى الإطراف والمتعة والتسلية والنقد، وإظهار المهارة الأدبية والروح الأخوية والصلات الحميمة التي كانت تربط بين الشعراء، ويكشف عن علاقات اجتماعية ومودات أخوية وطبائع نفسية، وهو في بعضه لون من الفكاهة الأدبية والمداعبات الشعرية، كما أنه يشحذ الهمم والمواهب، ويؤدي إلى المساجلات والمناظرات،

(1) انظر في هذا الموضوع: الإخوانيات في شعر ابن الخيمي، د. غريب محمد علي، بحث بمجلة كلية الآداب بقنا، العدد الثامن، سنة 1998م.

ويظهر إلى أي مدى كان الشاعر يمرح ويجول في عالم الشعر بحرية دون قيود مفروضة عليه.

ومن ذلك اللون الشعري قول ابن الخيمي في الرد على شرف الدين بن الطوسي:

حبَّـــــــذَا وَارِدٌ صَـــــــــفَا وحِبَّـــــا ظِلُّـــــه ضَــــفَا[1]

وكان شرف الدين الطوسي قد كتب إلى ابن الخيمي قائلًا:

أيُّهَـــــا الـــــسَّيدُ الـــــذي قَولُـــــهُ لِلْـــــوَرَى صَـــــفَا

أَفْتِنـــــــــي في قَــــــــضِيَّةٍ أَنَـــــا مِنْهَـــــا عَـــــلَى شَـــــفَا

أَتُـــــرَى في شَرِيعَـــــةِ الْـــــ حُـــــبِّ هَـــــذَا تَحَيُّفَـــــا[2]

وفي قصيدة ابن الخيمي نرى الشاعر يفتي صاحبه بأن الذي رآه ما هو إلا إشارات عارف، وحالة من التصوف قد ألمت به؛ إذ يقول:

وَإِشَـــــــارَاتُ عَـــــــارِفٍ ظَـــــــاهِرَاتٌ مَـــــعَ الخَفَــــــا

إنَّ مَـــــنْ صَـــــاغَه الغَـــــرا مُ إِلَى غَايَـــــــةِ الخَفَــــــا

فَبِـــــه البيـــــتُ زائـــــرٌ وبِــــــهِ قَــــــدْ تَطَوَّفَــــــا

وَهـــــو في كُـــــلِّ حَالَـــــةٍ صَـــــاحِبُ الـــــصِّدقِ والوَفَـــــا[3]

---

(1) انظر: ديوان ابن الخيمي، ورقة 73 -74؛ وانظر: الديوان، تحقيق: هلال ناجي وزهير غازي، ط دار الوفاء، سنة 2008، ص 133، وقد جاء البيت على النحو التالي:

حبـــــــــذا وارد ضـــــــــفا وجنـــــــــى ظلـــــــــه صـــــــــفا

(2) ديوان ابن الخميي، ورقة 73 -74؛ انظر: الديوان المطبوع، ص 133، 134، وفيه: كلمة الجفا بدلا من (الخفا).

(3) ديوان ابن الخميي، ورقة 73 -74.

ومن هذا اللون أيضًا تلك المداعبة اللطيفة التي دارت بين ابن حنا والسراج الوراق، وكان للسراج حمار قد سقط في بئر فمات، فأرسل ابن حنا إلى السراج قائلًا:

يَفْـدِيكَ جَحْـشُكَ إِذْ مَـضَى مُتَرَدِّيَـا ... وبَتَـا لِـدى يُفْـدي الأديـبُ وطَـارفِ
عَـدِمَ الـشَّعيرَ فَلَـمْ يَجِـدْهُ وَلاَ رَأَى ... تِبْنًـا وراحَ مِـنَ الظَّـما كالتَّـالفِ
ورَأَىَ البُـوَيْرَةَ غَـيْرَ خَـافٍ مَاؤُهَـا ... فَرَمَـى حُـشَاشَةَ نَفْـسِه لمخَـاوفِ
فهُـوَ الـشَّهيدُ لَكُـم بـوافرِ فَـضْلِكمْ ... هَـذِي المَكَـارِمُ لا حَمامـةَ خَـاطِفِ (1)

فرد عليه السراج قائلًا:

وَلَكَـمْ بَكَيْـتُ عَليـهِ عِنْـدَ مَرابـعٍ ... ومَراتـعٍ رُشَّـتْ بـدَمْعِي الـذَّارِفِ
يَمْـشِي عَـلَى عُـسْرِي وَيُـسْرِي صَـابِرًا ... بمَعَـــازِفٍ تُلْهِيـــهِ دُونَ مَعَـــالِفِ
وَقَـد اسْـتمرَّ عَـلَى القَنَاعَـةِ يَقْتَـدِي ... بِي وهـي في ذَا الوقـتِ جُـلُّ وَظَـائِفي
لكِــنْ بـــماءِ البِئْـــرِ رَاحَ بنقلـــة ... قتلتْـهَ شَـامَاتٌ بمَـوتٍ جَـارِفِ (2)

والحق أن الشعر المملوكي مملوء بمثل هذه الإخوانيات التي تحتاج إلى وقفة أكثر من ذلك.

(3) الشعر الديني:

الشعب المصري متدين بفطرته، مجبول على حب الدين بسجيته، وقد أشرنا من قبل إلى أن مصر قد عرفت بذور الزهد والنسك منذ الفتح الإسلامي، وقد استمر هذا التيار حتى إذا ما كان عصر الولاة العباسيين رأيناه يخالطه شيء من التصوف، ويستمر التصوف في مصر، ويعبر عنه الشعراء تعبيرًا واضحًا، فإذا ما كان العصر الأيوبي نراه يصل إلى شيء من الازدهار؛ وذلك لعناية الأيوبيين بالمتصوفة الذين بنوا لهم الخوانق والربط، واستخدموا

(1) فوات الوفيات، ج 3، ص 257، ط دار الثقافة – بيروت.
(2) فوات الوفيات، ج 3، ص 257، ط دار الثقافة – بيروت.

التصوف سلاحًا يحاربون به المذهب الشيعي، فإن المماليك استمروا في تشجيع ذلك التيار، واستخدام ذلك السلاح كأسلافهم الأيوبيين.

ويتولد عن التصوف تيار المدائح النبوية، ذلك التيار الذي يلقى رواجًا لم يتحقق له في عصر سابق.

والحق أن المماليك كانوا يجلون المتصوفة ويوقرونهم، ويتقربون إليهم، ويجرون عليهم الرواتب، ويهبونهم الأعطيات، ويقدرونهم تقديرًا بالغًا.

وقد ساعد على ازدهار التصوف والمدائح النبوية - إلى جانب تشجيع المماليك - عوامل عديدة، أهمها الحروب الصليبية، التي جعلت المسلمين يحسون بضرورة العودة إلى الدين والتمسك بأهدابه، وهجمات التتار الذين دمروا الخلافة الإسلامية في بغداد، وقد بعث ذلك حماسًا دينيًّا في النفوس منقطع النظير.

ومما يضاف إلى ذلك خطر النصارى واليهود في الداخل؛ فلقد كانت تسول لهم نفوسهم - من حين إلى آخر - إعلان سب النبي ﷺ؛ مما أدى بالمسلمين إلى الوقوف لهم بالمرصاد.

وبالإضافة إلى ذلك، فإن الظروف الاجتماعية والاقتصادية أدت إلى أن يعود الناس إلى التمسك بدينهم، والاعتصام بسنة نبيهم ﷺ(1).

ويمكن هنا أن نشير إلى نوعين من الشعر الديني، برزا بروزًا واضحًا، هما:

أ- المديح النبوي(2):

وجد فن المديح النبوي منذ عصر الرسول ﷺ، وتطور عبر العصور، حتى بلغ قمته على يد الإمام البوصيري، الذي يعد المادح النبوي الأول في الأدب العربي، والبوصيري

---

(1) انظر: ديوان ابن سيد الناس، ج 1، ص 24، 25، ص 43، 45، د. غريب محمد علي، ط1، الأمانة، سنة 1992م.

(2) انظر في هذا الموضوع: الاتجاه الديني في شعر القرن السابع الهجري في مصر، د. غريب محمد علي، ط دار الكتب المصرية، سنة 2014.

obeikandi.com

شاعر مصري (ت سنة 696هـ)، وهو رائد هذا الفن بلا منازع، وجاء من بعده تلميذه ابن سيد الناس (ت سنة 734هـ)، فتسلم الراية وبرع في هذا الفن براعة فائقة.

ويكفي أن نقول إن الأستاذ "البوصيري" وتلميذه "ابن سيد الناس"، قد أضافا إلى هذا الفن عناصر لم يتطرق إليها شعراء العصور السابقة على الإطلاق، ولم يكن البوصيري وابن سيد الناس هما فقط اللذان خاضا في هذا الفن؛ بل وجد شعراء كثيرون إلى جانبهم ينظمون ويمدحون، ومن شعر البوصيري قصيدته المشهورة (البُرْدة)، التي ما زالت طوائف الصوفية ترددها وتتغنى بها إلى يومنا هذا، وقصيدته التي يعارض بها قصيدة "بانت سعاد"، ومن قوله في (البردة):

أَمِـنْ تَـذَكُّرِ جِـيرَانٍ بِـذِي سَـلَمِ ... مَزَجْـتَ دَمْعًـا جَرَى مِـنْ مُقْلَـةٍ بِـدَمِ
أَمْ هَبَّـتِ الـرِّيحُ مِـنْ تِلْقَـاءِ كَاظِمَـةٍ ... وَأَوْمَـضَ الـبَرْقُ في الظَّلْـمَاءِ مِـنْ إِضَـمِ
يَـا أَكْـرَمَ الرُّسْـلِ مَـا لِي مَـنْ أَلـوذُ بِـهِ ... سِـوَاكَ عِنْـدَ حُلـولِ الحَـادِثِ العَمِـمِ
فَمبْلَــغُ العِلْــمِ فِيــهِ أَنَّــهُ بَــشَرٌ ... وَأَنَّــهُ خَــيْرُ خَلْــقِ اللهِ كُلِّهِــمِ (1)

ومن قصيدته اللامية "ذخر المعاد" قوله:

إِلَى مَتَـى أَنْـتَ باللَّـذاتِ مَـشْغُولُ ... وَأَنْـتَ عَـنْ كُـلِّ مَـا قَـدَّمْتَ مَـسْئُولُ
فِي كُـلِّ يَـومٍ تُرَجِّـي أَنْ تَتُـوبَ غَـدًا ... وَعَقْـدُ عَزْمِـكَ بالتَّـسْويفِ مَحْلُـولُ
مَتَـى تَجُـوبُ رَسُـولَ اللهِ نَحْـوكَ بِي ... تِلْـكَ الجِبَـالَ نَجِيبَـاتٌ مَرَاسِـيلُ
وَمَـا مُحَمَّـدٌ إِلاَّ رَحْمَـةٌ بُعِثَـتْ ... لِلْعَـالمِينَ وَفَـضْلُ اللهِ مَبْـذُولُ
دَامَـتْ عَلَيْـكَ صَـلاةُ اللهِ يَكْفُلُهَـا ... مِـنَ المُهَـيْمنِ إِبْـلاغٌ وَتوصِـيلُ (2)

---

(1) ديوان البوصيري، ص 238 وما بعدها، تحقيق: محمد سيد كيلاني، ط مصطفى البابي الحلبي، سنة 1974.
(2) ديوان البوصيري، ص 220 وما بعدها.

ومن شعر ابن سيد الناس في مديح النبي ﷺ قصيدته اللامية التي يعارض فيها لامية أستاذه البوصيري، يقول فيها:

قَلْبِي بِكُمْ يَا أُهَيْلَ الحَيِّ مَأْهُولُ ... وَحَبْلُهُ بِأَمَانِي الوَصْلِ مَوْصُولُ

يَا خَيْرَ مَنْ مَرَحَتْ كُمْتُ الجِيَادِ بِهِ ... ومَنْ حَدَتْ نَحْوَه العِيسُ المَرَاقِيلُ

يَا رَحْمَةَ اللهِ عَمَّتْ كُلَّ ذِي بَشَرٍ ... مِنَ الأَنَامِ فَتَعْجِيلٌ وتَأْجِيلُ

صَلَّى وَسَلَّمَ رَبُّ العَرْشِ مَا وَخَدَتْ ... وَجْنَاءُ فِي وَجْنَةِ البَيْدَاءِ شِمْلِيلُ (1)

ومن شعر ابن سيد الناس في هذا الفن قوله:

مُحَمَّدٌ خَيْرُ خَلْقِ اللهِ أَرْفَعُهُمْ ... قَدْرًا وأَدْنَاهُم مِنْ رَبِّهِ زُلَفَا

يَا خَيْرَ مَنْ ضَمَّ تُرْبُ الأَرْضِ أَعْظُمَهُ ... وَأَعْظَمَ النَّاسِ مَرْجُوًّا لِمَنْ جَنَفَا

مَنْ خَصَّهُ اللهُ فِي الذِّكْرِ الذي شَرُفَتْ ... آيَاتُهُ بِثَنَاءٍ زَادَه شَرَفَا (2)

ومن الشعراء الذين نظموا في هذا الغرض جمال الدين الأرمنتي (ت سنة 711هـ)، الذي يقول:

نَبِيٌّ كَرِيمٌ أَجْمَلُ الخَلْقِ صُورَةً ... وَأَكْمَلُهُمْ خُلُقًا وَأَعْظَمُهُمْ مَثْوى

وَأَسْمَحُهُمْ كَفًّا وَأَنْدَاهُمُ يَدًا ... وَأَكْثَرُهُمْ حلمًا وَأَعْظَمُهُمْ عَفْوا (3)

ومنهم ابن دقيق العيد الذي يقول:

جَاءَ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ بِكِتَابٍ ... مُحْكَمِ النَّظْمِ كَامِلٍ إِرْشَادُه

هُوَ غَضٌّ عَلَى الزَّمَانِ لَذِيذٌ ... دَرْسُهُ لاَ يَمَلُّهُ تَرْدَادُه

---

(1) ديوان ابن سيد الناس، تحقيق: د. غريب محمد علي، ج 2، ص 127 وما بعدها.

(2) ديوان ابن سيد الناس، ج2، ص 133 وما بعدها.

(3) الطالع السعيد، الأدفوي، ص 514.

obeikandi.com

أَعْجَـزَ العَـالَمِينَ طُـرًّا وَمَـنْ غَـا   لَـبَ بَحْـرًا وَدَتْ بِـهِ أَطْـوَادُه [1]

(ب) الشعر الصوفي [2]:

شط الشعر الصوفى نشاطًا ملحوظًا في تلك الفترة، وقد أشرنا إلى كثير من الأسباب التي أدت إلى ذلك النشاط، وتكونت الطرق الصوفية الكبرى التي ما زال حتى يومنا هذا لها أتباعها ومريدوها، مثل الدسوقية والبدوية والشاذلية.

وتوزع الشعر الصوفي بين الحديث عن الحب الإلهي والمعرفة والفناء ووحدة الوجود ووحدة الشهود ووحدة الأديان، وبين الحديث عن الحقيقة المحمدية والحكم والمواعظ والنصائح والإرشادات.

وبمعنى آخر، أن شعر التصوف في تلك الفترة قد امتزج بالنظريات الفلسفية؛ إذ لم يكتف المتصوفة بالتصوف العملي، بل أضافوا إلى تصوفهم النظريات التي مازجت التصوف الإسلامي في العصور السابقة، وخاصة ما تجلى عند ابن الفارض سلطان العاشقين، وزعيم الشعراء الصوفيين في العصر السابق.

ولكن تلك النزعات الفلسفية بدأت تخف فيها بعد شيئًا فشيئًا، وبدأ شعراء التصوف ينظمون شعرًا صوفيًّا يهتف به في مجالس الصوفية، ويردده منشدوهم في حلقات الذكر.

ومن صوفية ذلك العصر ابن عطاء الله السكندري وابن نوح الأقصري القوصي، والدسوقي، وعبد العزيز الدريني وضياء الدين الغرناطي، وغيرهم كثير.

وإليك طائفة من شعرهم تدل على اتجاهاتهم ومنازعهم الصوفية، يقول ابن عطاء الله السكندري داعيًا مريده، وناصحًا إياه بالذكر والعبادة:

لَازِمِ البَـابَ بِـذُلٍّ وَأَسَـى   فَهُـمَا في الحُـبِّ شَرْطٌ يُلْتَـزَمْ

(1) ديوان ابن دقيق العيد، ص 145، تحقيق د. علي صافي حسين، ط1، دار المعارف، سنة 1960.

(2) انظر: في التصوف الإسلامي، د. غريب محمد علي، ط الدار العربية للكتاب، سنة 2008.

وَدَعِ التَّقْصِيرَ في خِدْمَتِهِ ... وَشَمِّرِ الذَّيْلَ وَلاَ تَخْشَ الأَلَمْ (1)

ويقول ابن نوح في الحب الإلهي:

أَنَا أُفْتِي أَنَّ تَرْكَ الحُبِّ ذَنْبُ ... آثِمٌ في مَذْهَبِي مَنْ لاَ يُحِبُّ
ذُقْ عَلَى أَمْرِي مَرَارَاتِ الهَوى ... فَهْو عَذْبٌ وعَذَابُ الحُبِّ عَذْبُ
كُلُّ قَلْبٍ لَيْسَ فِيهِ سَاكِنٌ ... صَبْوَةٌ عُذْرِيَّةٌ مَا ذَاكَ قَلْبُ(2)

ويقول ابن نوح أيضًا:

لاَ كَانَ مَنْ يَهْوَى لِغَيْرِ هَوَاكَا ... كَلَّا وَلاَ قَلْبٌ يُحِبُّ سِوَاكَا
حَاشَا جَمَالَكَ أَنْ يَكُونَ لِعَاشِقٍ ... يَعْتَاضُ مَا يَعْتَاضُه إِلَّاكَا
فَالكَوْنُ أَجْمَعُ والوُجُودُ بِأَسْرِه ... يَهْوَى الهَوى وَكَذَا الهَوى يَهْوَاكَا
والعِشْقُ أَصْبَحَ فِيكَ يُعْشَقُ كُلُّه ... مَا كَانَ يَعْشَقُ عِشْقَهُ لَوْلاَكَا (3)

ويقول عبد العزيز الدريني، محذرًا من الدنيا، وداعيًا إلى الزهد فيها وعدم الاغترار بها:

لَذَّاتُ دُنْيانا كَأَحْلاَمِ الكَرَى ... وَبُلُوغُ غَايَتِهَا حَدِيثٌ مُفْتَرَى
ازْهَدْ فَكُلُّ الرَّاغِبينَ عَبِيدُهَا ... والزَّاهِدُ الحَبْرُ التَّقِيُّ سَعِيدُها
لاَ تَغْتَرِرْ بِوَمِيضِهَا وَخِدَاعِهَا ... فَوَرَاءَ مَبْسَمِهَا يَثُوبُ سِبَاعُهَا (4)

---

(1) لطائف المنن، ص 187، ابن عطا الله السكندري، سنة 1277هـ.

(2) الطالع السعيد، ص 324.

وانظر: ابن نوح الأقصري القوصي وشعره الصوفي، د. غريب محمد علي، ط أولى، دار البيان، سنة 1989م.

(3) الوحيد في سلوك أهل التوحيد، ابن نوح، ج2، ورقة 182، مخطوط بدار الكتب.

(4) طبقات الشافعية، ج 5، ص 77.

obeikandi.com

ويقول إبراهيم الدسوقي معبرًا عن حبه للذات العلية، هذا الحب الذي يجعله يرى الله في كل شيء، وفي كل وجهة يتجهها؛ بل إن هذا الحب هو سر حياته وكنه وجوده وغايته وأمله وأمنيته:

تَجَلَّى لِي المَحْبُوبُ في كُلِّ وجْهَةٍ   فَشَاهَدْتُهُ في كُلِّ مَعْنًى وَصُورَة

وخَاطَبَنِي مِنِي بِكَشْفِ سَرَائِرِي   فَقَال أَتَدْرِي مَنْ أَنَا؟ قُلْتُ مُنْيَتِي [1]

4- شعر الفكاهة [2]:

عرف الأدب العربي فن الفكاهة، وازدخر به ازدخارًا، وعجت المؤلفات بكثير من الفكاهات والنوادر والطرائف الأدبية.

وقد عرف هذا اللون في الشعر المصري، ولا غرابة في ذلك؛ فالمصريون معروفون بالميل إلى الفكاهة والدعابة منذ أقدم العصور، وقد عرف في مصر الإسلامية مجموعة من الشعراء المتندرين المتظرفين، مثل الجمل الأكبر، وسيبويه المصري، وأبي الرقعمق، وابن مكنسة.

وإذا جئنا إلى هذا الفن في العصر المملوكي نجده قد اتسع وازدادت موجته، حتى لكأننا أمام مسرح كبير من الضحك والفكاهة طوال هذا العصر.

وقد استطاع شعراء هذا العصر أن يقدموا لنا صورًا كاركاتورية ساخرة، ولم يشهد عصر من قبل مثلهم عددًا، وكان على رأس هؤلاء: أبو الحسين الجزار والسراج الوراق وابن دانيال الكحال والحمامي وابن النقيب.

وفي اعتقادنا أن هناك أسبابًا عديدة أدت إلى وجود الفكاهة في ذلك العصر؛ فالبيئة المصرية لها أثرها في صفاء النفس وطلاقة الأسارير وسهولة الطبع، ودفع الإنسان

(1) الطبقات الكبرى، الشعراني، ج 1، ص 201، ط ثانية، دار الطباعة 1286هـ.

(2) انظر في هذا الموضوع: شعر التحامق في العصر المملوكي الأول في مصر، د. غريب محمد علي، مجلة كلية الآداب بقنا، عدد 4، سنة 1995م.

obeikandi.com

المصري إلى روح الفكاهة والمرح[1]، والتاريخ المصري الحافل بأطوار الحوادث ومفارقات الأيام وآلام الحياة له أثر في دفع الإنسان المصري إلى الترويح عن النفس، وبالإضافة إلى ذلك فراغ "بعض الشعراء من العمل الجدي، أو بعدهم عن المناصب الرفيعة ذات الشأن التي تدعو إلى الجد، وتذود عن مهاوي الهذر والمزاح[2]، أدى إلى البحث عما يشغل هذا الفراغ من وسائل، فكانت الفكاهة إحدى هذه الوسائل، كما أن الحكومات الطارئة على مصر من خارج البلاد "رسبت في النفوس مرارة بالغة، مازجها الخوف من البطش، والخشية من غلظة الحاكمين، فتنفست هذه النفوس عن طريق الفكاهة؛ لتتسلى وتتعزى [3]، ولتعبر عن الآلام والشقاء بلا صراحة، وتعبر عن السخط على بعض الحكام والسلاطين الغاشمين بطريقة غير مباشرة، وبالإضافة إلى ذلك، فإن مصر كادت تفرغ من الحروب الصليبية، وبدأ المصريون يخلدون إلى رخاء شاعت فيه فنون من اللهو واللعب، فتفجرت ينابيع الفكاهة في أنفسهم "[4]. ولعل شعراء الفكاهة في ذلك العصر قد لجئوا إلى ذلك لإبراز ما أصاب المجتمع من أمراض وأوبئة ومجاعات؛ إشعارًا للحكام بما يعانيه أبناء الطبقة الدنيا، ومحاولة منهم للإصلاح الاجتماعي والأخلاقي.

وربما استخدم هؤلاء الشعراء الفكاهة نوعًا من الشكوى غير المباشرة؛ استدرارًا للهبات والعطايا، أو نوعًا من محاولة إثبات الذات في المجتمع، وضربًا من التوافق والتواؤم مع هذا المجتمع.

وأهم ما وقف شعراء الفكاهة عنده يتندرون به، وصف دورهم المتهدمة التي لا تكاد تتوافر فيها أسباب الحياة، وذلك كما نقرأ في قول الوراق متحدثًا عن بيته في وقت الشتاء:

وَبَيْتِـــي فِي الــــشِّتَاءِ يَكَـــادُ يَبْــدُو ... بِـــهِ جَـــسَدِي لِـــسُكَّانِ الجَحـــيمِ

---

(1) انظر: كتاب الفكاهة في الأدب العربي، د. أحمد الحوفي، ص 15- 17 ط1، نهضة مصر، سنة 1966.

(2) عصر سلاطين المماليك، د. محمود رزق سليم، ج 8، ص 444، ط الآداب، سنة 1965.

(3)عصر سلاطين المماليك، ج 8، ص 444.

(4) الفكاهة في مصر، د. شوقي ضيف، ص 54، ط، دار المعارف، سنة 1985.

تَــصدُّ الــشَّمْسُ فِيــه عَنَّــا حتَّــــى كَأَنَّــا فِيــه أَصْــحَابُ الــرَّقِيمِ [1]

وأما ابن دانيال، فإنه يقدم لنا لوحة فكاهية ضاحكة عن بيته، يقول فيها:

أَصْبَحْتُ أَفْقَرَ مَنْ يَروحُ ويَغْتَدِي   مَـا في يَـدِي مِـنْ فَاقَـةٍ إلاَّ يَـدِي

فِي مَنْـزِلٍ لَمْ يَحْـوِ غَـيْرِي قَاعِـدًا   فـإِذَا رَقَـدْتُ رَقَـدْتُ غَـيْرَ مُمَـدَّدِ

لَمْ يَبْـقَ فِيـه سِـوَى رُسُـومِ حَـصِيرَةٍ   وَمُخَــدَّةٍ كَانَــتْ لأُم المُهْتَــدِي

والفَـارُ يَـرْكُضُ كَـالخُيولِ تَـسَابقَتْ   مِـنْ كُـلِّ جَـرْدَاءِ الأَدِيـمِ وَأَجْـرَدِ [2]

وإذا كان ابن دانيال قد وجد في داره رسوم حصيرة بالية وبقايا وسادة ممزقة، فإن الجزار لم يجد شيئًا من ذلك، فتوسد شدقه بعد أن نفخه، وافترش ظله، وهذا ما يتضح في قوله:

وَلَمْ أَلْــقَ في بَيْتِــي دِثَــارًا أُعِــدُّه   لِــبَرْدٍ وَلاَ شَــيْئًا يَــرُدُّ هَجِــيرَا

فَــأَنفُخُ شِــدْقِي إِنْ أَرَدْتُ وِسَــادَةً   وَأَفْـرِشُ ظِـلِّي إِنْ أَردْتُ حَـصِيرَا [3]

ومثلما وصفوا دورهم وأعطونا عنها صورة مضحكة، فقد وصفوا دوابهم وحيواناتهم، وتندروا بها وتفكهوا، وهذا ابن دانيال يصف حماره الذي أعمي بالعرج، ويسير كالأسير ينكفئ في مشيته، كأنما ينحط من درج، يقول ابن دنيال:

قَــدْ كَمَّــلَ اللهُ بِــرَذْونِي بِمَنْقَـصَةٍ   وَشَــأنه بَعَــدَمَا أَعْــمَاهُ بــالعَرَجِ

أَسِـيرُ مِثْـلَ أسِـيرٍ وَهْـو يَعْـرُجُ بِي   كَأَنَّــه مَاشِــيًا يَــنْحَطُّ مِــنْ دَرَجِ [4]

(1) منتخب شعر الوراق، ورقة 381، مصور بجامعة القاهرة رقم 26375.
(2) فوات الوفيات، الصفدي، ج 2، ص 192.
(3) شعر أبي الحسين الجزار، أحمد عبد المجيد محمد، ص 153، رسالة دكتوراه بآداب قنا، سنة 1966، وانظر: ديوان الجزار، ص 42، تحقيق: د. محمد زغلول سلام، ط منشأة المعارف، سنة 2001.
(4) فوات الوفيات، ج 2، ص 192.

obeikandi.com

وأما الجزار فيقول عن حماره:

هَــذَا حِمَــارِي في الحَمِــيرِ حِمَــارُ ... فِي كُــلِّ خَطْــوٍ كَبْــوَةٌ وَعِثَــارُ

قِنْطَــارُ تِــبْنٍ في حَــشاه شَــعِيرَةٌ ... وشَــعِيرَةٌ في ظَهْــرِه قِنْطَــارُ (1)

ويشارك ابن النقيب في رسم جزء من لوحة الدواب، فيقول عن بغلته:

"لِي بَغْلَــةٌ مِــنْ ضَــعْفِهَا ... حِزَامُهــا يُثْقِلُهــا

كَأَنَّهــا رِجْــلِي كَــمَا ... تَحْمِلُنِــي أَحْمِلُهَــا (2)

وبالإضافة إلى التندر بالدور والدواب، فقد تندروا وتفكهوا بمهنهم وألقابهم؛ إذ لم تسلم هذه أيضًا من تظرفهم وتباهم، يقول السراج الوراق متلاعبًا بالألفاظ:

خَرَجْــتُ مِــنْ بَيْتِــي سِرَاجًــا وَقَــدْ ... عُــدْتُ مِــنَ الأَمْطَــارِ قِنْــدِيلَا

فَالحَمْــدُ للهِ الــذي شُــكْرُه ... بِــه لِــسَانِي عَــادَ قنْــدِيلا (3)

وأما الجزار فيتحدث عن مهنته ولقبه، فيقول:

أَصْــبَحْتُ لَحَامًــا وفي البَيْــتِ لا ... أَعْــرِفُ مَــا رَائِحَــةُ الَّلحْــمِ

وَلَــيْسَ حَظِّــي مِنْــه إِلَّا اسْــمُهُ ... قَنَعْــتُ مِــنْ ذَلِــكَ بالاسْــمِ

واعْتَـضْتُ مِـنْ فَقْـرِي وَمِـنْ فَـاقَتِي ... عَــنِ التِــذَاذِ الطَّعْــمِ بالــشَّمِ

جَهِلْتُــه فَقْــرًا فَكُنْــتُ الَّــذِي ... أَضَــلَّهُ اللهُ عَــلَى عِلْــمِ (4)

ولهم إلى جانب ذلك صور مضحكة ولوحات فكاهية لطيفة ظريفة في وصف طعامهم وملابسهم وخَلقهم وخُلقهم، ولجئوا أحيانًا إلى مسخ قصائد قديمة مشهورة

(1) مطالع البدور، الغزولي، ج 2، ص 184.

(2) مطالع البدور، ج 2، ص 201.

(3) منتخب شعر الوراق، ورقة 370.

(4) شعر الجزار، ص 60.

obeikandl.com

لبعض الشعراء المشهورين، وذلك مثل قصيدة الجزار في معارضة معلقة امرئ القيس، يقول الجزار في تلك القصيدة متظرفًا:

قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى قَمِيصٍ وسِرْوالِ   وَدُرَّاعَـةٍ لِي قَـدْ عَفَـا رَسْـمُهَا البَـالِي

وَمَـا أَنَـا مَـنْ يَبْكِـي لأَسْـمَاءَ إِنْ نَـأَتْ   ولكنّنـى أبْكِـي عَـلَى فَقْـدِ أَسْـمَالِي [1]

***

(1) شعر الجزار، ص 188، وفي طبعة منشأة المعارف، تحقيق: د. محمد زغلول سلام يأتى الشطر الثاني من البيت الأول هكذا: (... ودراعة لي قد جفا غضها البالي).

obeikandl.com